المقدمة

أصبح واضحًا وأنا أكتب هذا الكتاب أن ردود فعل الناس على فكرة وجود كتاب يتحدث عن غسيل الدماغ تقع دائمًا تقريبًا في أحد نوعين؛ يقول أصحاب النوع الأول، وهو أكثرهما عددًا: «ما أروعها من فكرة!»، ويسأل أصحابه كثيرًا من الأسئلة، ويَردُّ أصحاب النوع الثاني بسخرية: «غسيل الدماغ! أنت تعلم أن ذلك مجرد هراء، أليس كذلك؟».

بالتأكيد أنا لا أعتقد ذلك؛ وإلا لما كتبت هذا الكتاب، ولكن من الإنصاف القول إن غسيل الدماغ تكتنفه روابط تثير الشك، بل حتى الريبة؛ وقد عُدَّ حتى وقت قريب -شأنه شأن الوعي والعاطفة- أنه لا يستحق أي اهتمام علمي، أو أنه من صنع واضعي نظريات المؤامرة المختلين، أو أنه -في أحسن الأحوال- نتاج ظروف سياسية غريبة، ولكن غسيل الدماغ أكبر وأكبر بكثير من ذلك، وتكمن في جوهره فكرة خبيثة، هي حلم التحكم التام في عقل بشري، وهو ما يؤثر فينا جميعًا بطريقة ما.

يمثل غسيل الدماغ أقصى غزو للخصوصية؛ إنه لا يسعى للتحكم في كيفية تصرف الناس فحسب، بل أيضًا فيما يفكرون فيه، إنه يثير أعمق مخاوفنا، مهددًا بفقداننا للحرية، بل لهويتنا، ومع ذلك فمن المذهل قلة ما نعرفه عنه. وبالنظر إلى التطورات التي حصلت في فهمنا العلمي للأدمغة وسلوكاتها منذ عنفوان الدراسات عن غسيل الدماغ التي جرت في خمسينيات القرن العشرين، فقد حان الوقت فعلًا لإلقاء نظرة ثانية على هذه الظاهرة الغامضة والمرعبة.

قُسِّم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء؛ يركز الجزء الأول: التعذيب والإغواء (الفصول 1-6)، في تاريخ غسيل الدماغ وعلم النفس الاجتماعي المرتبط به؛ حيث يشير المصطلح نفسه في الأصل إلى برامج سياسية في الصين وكوريا الشيوعيتين، لكن المفهوم كان أجود من أن يُهدر، ولم يمضِ وقت طويل حتى صارت مزاعم غسيل الدماغ تلصق بأي نشاط ينطوي على تغيير العقول، هل من المسوغ إطلاق مثل هذه الادعاءات؟ يدخل غسيل الدماغ في عدد من المجالات: الدين، والسياسة، والإعلانات ووسائل الإعلام، والتربية، والصحة العقلية، والجيش، ونظام القضاء

الجنائي، والعنف الأسري والتعذيب. سوف نرى أن غسيل الدماغ شكل متطرف من أشكال التأثير الاجتماعي، يستخدم آليات يدرسها علماء علم النفس الاجتماعي ويفهمونها فهمًا ودراسة متزايدين، وأن مثل هذا التأثير يمكن أن يتفاوت في شدته تفاوتًا كبيرًا.

وسوف نبحث في طيف من الحالات التي تتضمن أفرادًا ومجموعات صغيرة ومجتمعات بأكملها يتميز فيها جميعًا التأثير الذي نسميه (غسيل الدماغ) باستخدام القوة أو التسلل أو كلٍّ منهما معًا، وسنرى أيضًا أن الذعر من غسيل الدماغ؛ أي الخوف من تعطيل عقل شخص ما، ثم إعادة تشكيله وفق مواصفات يضعها شخص آخر، يستمد قوته من نظرتنا التي نفضلها لأنفسنا بوصفنا أحرارًا ومنطقيين وأصحاب قرار، فنحن نحب أن نعتقد أن عقولنا قوية ومتينة، تشكل كيانات نقية غير متغيرة، وتشابه كثيرًا المفهوم الديني للروح الخالدة، ونفضل أن تكون عقولنا مثل الألماس، تحافظ على شكلها مع ازدياد الضغط عليها إلى أن تتهشم إلى أجزاء (تحت تأثير قوة غسيل الدماغ)، وكذلك فنحن نميل إلى الاعتقاد أن القوة العقلية مستمدة من المنطق؛ لذا ننظر إلى العواطف على أنها ضعف، ونظن في أنفسنا أن لدينا إرادة حرة؛ فنختار أن نتأثر أو لا نتأثر بالآخرين، وإذا أردنا أن نفهم هل مخاوفنا من غسيل الدماغ مبررة أم لا، فيجب علينا أن ننظر في هذه الاعتقادات.

هذا يعني فهم المزيد عن الدماغ البشري؛ لذلك فإن الجزء الثاني: الخائن الموجود في جمجمتك (الفصول 7–11) يتناول باهتمام العلوم العصبية، وأنبِّهكم أن هذا هو أصعب جزء في الكتاب. ما من طريقة للحديث عن الجملة العصبية من دون الخوض في التفاصيل؛ فالأدمغة ترفض أن تختزل في مجرد اصطلاحات. لقد ضمَّنت دليلًا للمبتدئين (علم الأعصاب باختصار)، وأشكالًا، وأقل قدر ممكن من الأمور التقنية، ولكنني استخدمت عديدًا من الأمثلة، قد لا تبدو جميعًا متعلقة بغسيل الدماغ، ولذلك أسبابه فأمهلوني.

بداية لا توجد أدلة علمية حديثة مباشرة على ما يحصل في الدماغ في أثناء غسيل الدماغ؛ إذ تمنع الاعتراضات الأخلاقية إجراء مثل هذه البحوث، وثانيًا نحن بحاجة إلى فهم كيف يعمل الدماغ في الحالة الطبيعية قبل أن نستطيع فهم العمليات غير الطبيعية التي تحصل عند غسيل الدماغ. إن موضوعات الجزء الثاني (التغير في الدماغ، والاعتقادات، والعواطف، وكيف تُحدِث الأدمغة الأفعال، والتحكم الذاتي، والإرادة الحرة) أمور جميعها معقدة جدًّا بحيث إنها تتطلب شرحًا وافيًا؛ لذا خاطرت في أن ألاحق السراب سعيًا إلى التوضيح.

يُظهر الجزء الثاني أن تصوير العقول بأنها صلبة وكامنة صورة مضللة؛ فالعقول أشبه بالطين اللين منه بالألماس؛ لسنا نحن البشر أشخاصًا مستقلين استقلالًا حازمًا يمكن بناءً على عقلانيتنا التي لا يمسها خلل تقرير كثير من العواقب (مثل مبدأ المسؤولية الجنائية الذي يتوقع من الذين يحكم عليهم بأن يكونوا قد تصرفوا بحرية واختاروا بعقلانية). بدلًا من ذلك، فإن البشر يولدون ثم يُصنعون؛ بنماذج خاصة طبعًا، لكنهم أيضًا يُشكَّلون إلى درجة كبيرة بفعل الظروف الاجتماعية، خاصة الأفكار التي نستمدها من مجتمعاتنا والمشاعر التي نحيطها بها؛ نحن نقلل من أهمية مدى التغيير الذي تحدثه حتى الصور البسيطة من التأثير في طريقة تفكيرنا وتصرفنا.

يأخذ الجزء الثالث: الحرية والتحكم هذا المفهوم الجديد، ويستقصي تأثيره في عملية غسيل الدماغ، فيتناول الفصل 12 الأفراد متسائلًا: ما الذي يجعل الناس؛ ضحايا ومفترسين، عرضة لعملية غسيل الدماغ أو منجذبين إلى قدرتها الكامنة الخبيثة؟ يسأل الفصل 13 السؤال نفسه حول المجتمعات.

إن مفهوم غسيل الدماغ الذي ارتبط منذ بداياته الباكرة بالدول الشمولية، مفهوم سياسي عميق، فما هي إذًا العوامل الاجتماعية للتحكم في التفكير؟ ينتقل الفصل 14 من الحاضر إلى المستقبل ليسأل: ما التأثير الذي قد تؤثر به التطورات العلمية في تقنيات غسيل الدماغ؟ أخيرًا، أرى أن أهم الأسئلة جميعها ربما كان: هل يمكننا مقاومة غسيل الدماغ؟ ومن منطق أن أفضل أشكال الدفاع هو اتخاذ الاحتياطات المسبقة، فإنني أناقش الطرق التي يمكن أن يعزز بها كلٌّ منا الحمايةَ الشخصية ضد محاولات التأثير غير المرغوب فيها.

لكن لا يستطيع الأفراد كلٌّ على انفراد أن يفعلوا إلا القليل؛ غسيل الدماغ ليس رصاصة سحرية، وطريقة مختصرة للتحكم في التفكير؛ إنه -على خلاف ذلك- ظاهرة معقدة تستخدم عمليات نفسية يتزايد فهمها باستمرار لتعيث الخراب، وفي حين أن ذلك يبدو مطمئنًا، فإن العواقب هي أنه لا توجد بالمقابل رصاصة سحرية (مضادة لغسيل الدماغ)؛ إن غسيل الدماغ قبل كل شيء ظاهرة اجتماعية وسياسية، وأفضل دفاعاتنا ستكون أيضًا على مستوى المجتمع: هي التي تستطيع أن ترفع الحماية إلى الحد الأقصى. للدفاع عن أنفسنا نحتاج إلى تفضيل أنواع معينة من التوجهات السياسية -تلك التي تؤكد أهمية الحريات الشخصية- وتجنب الأنظمة

العقائدية التي تعطي قيمة أعلى للثقافات أو المنظمات أو المجتمعات من القيمة التي تعطيها للكائن البشري المنفرد؛ لذا ربما يبلغ غسيل الدماغ أَوْجَهُ في مناقشة سياسية.

حاولت في جميع أجزاء هذا الكتاب الإجابة عن بعض أسئلة كثير من الناس الذين تفاعلوا إيجابيًّا عندما سمعوا العنوان المقترح للكتاب: ما الذي يحصل في أثناء غسيل الدماغ؟ هل هو حقيقي؟ وكيف يعمل؟ أما زال مستمرًّا؟ كيف يمكننا إيقافه؟

يجب أن أضيف ثلاث ملحوظات فنية: أولًا، وهذه ملحوظة مهمة فقط في النسخة الإنجليزية للكتاب، استخدمت نظام erat scriptum (من اللاتينية [sic] أي (هكذا كُتِبَتْ)) الذي يعني أن الجملة المقتبسة تكتب كما هي وإن خالفت قواعد التهجئة، لتأكيد التهجئة الغريبة في الاقتباسات الحديثة فقط؛ فمثلًا: جون ملتون John Milton كتب في عصر سبق توحيد التهجئة في اللغة الإنجليزية؛ لذا تركت كلماته كما قدمها محرروه. ثانيًا، الاقتباسات المكتوبة بالحروف المائلة أصلية ما لم يذكر خلاف ذلك. ثالثًا، تشكل اللغة الإنجليزية مشكلة لأولئك الذين يحاولون الكتابة بصورة محايدة للجنسين: إن كتابة (هو أو هي) كل مرة نتكلم فيها عن مفرد غائب أمر ثقيل، وكتابة (هو/هي) كل مرة أمر مقيت، ومن ثم استخدمت (هو أو هي) أحيانًا، لكن عندما يند ذلك عن سلاسة الأسلوب إلى حد مزعج ألجأ إلى ضمير المذكر المفرد في معظم الحالات؛ ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أنه أسهل، لكنه يعود أكثر لأسباب تاريخية؛ فقد ظهر غسيل الدماغ أولًا سلاحًا في الحرب، ومعظم المشاركين فيها -معظم الجناة والضحايا والباحثين- كانوا من الرجال.

وإذ لا بد من الشكر فإنني أود أن أشكر كل شخص أسهم، مهما كانت مساهمته غير مباشرة، في هذا الكتاب، ومن بينهم العلماء الذين استشهدت بهم في نص الكتاب، والذين أخذت من المصادر التي سردوها من دون الرجوع إليهم، لهدف نبيل حسبما آمل. إن الأخطاء التي بقيت مسؤوليتي أنا، أقل بكثير مما كانت عليه في البداية بفضل المساعدات التي قدمت لي. أتقدم بشكر خاص إلى البروفيسور كوينتين سكينر Quentin Skinner، والدكتور هيلين سوثرلاند Dr Helen Sutherland على لطفهم وصبرهم في قراءة أجزاء الكتاب وإبداء النصيحة حولها، ولتزويدي بالمصادر، وكذلك فإن الدكتور بيتر هانسن Dr Peter Hansen قد علق على بعض الفصول، وقدَّم د. زوجوانج ليو Dr Xuguang Liu الأشكال الرمزية المستعملة في الفصل الأول، وقدَّم السيد ألان تايلور Taylor Mr. Alan صورة استعملت في الفصل 10، وقدَّمت أندي بينيت Andy Bennett صورة جبال استعملت في الشكل 3-10، وساعد المجلس الأوروبي على الإجابة عن استفسار.

كانت الدكتورة كاثي ويليكس Dr Kathy Wilkes كريمة في الوقت والنصيحة؛ وكانت وفاتها المفاجئة عام 2003م خسارة عظيمة لي ولكثير من الناس. أقدم خالص الشكر أيضًا إلى د. تيم ليتل وود Dr Tim Littlewood وزملائه، فمن دونهم ما كان لهذا الكتاب أن يكتب أبدًا.

وقدمت لي دار نشر جامعة أكسفورد فرصة عظيمة، وشكري الخاص موصول إلى مايكل رودجرز Michael Rodgers، ومارشا فيليون Michael Rodgers؛ على تشجيعهم وإلهامهم الهائلين دونما كلل، وعلى المساعدة (عند الحاجة)، وكذلك النقد (أيضًا عند الحاجة). وقد ساعدني آبي هيدون Abbie Headon، وديبي ساتكليف Debbie Sutcliffe، ومايكل تيرنان Michael Tiernan، أيضًا مساعدة كبيرة. وقدَّم المراجعون الثلاثة للمسوَّدة الأصلية للكتاب، الأستاذ الجامعي إليوت أرونسون Professor Elliot Aronson، والأستاذ الجامعي مايلز هويستون Prof. Miles Hewstone، و(المُراجع B)، تقارير دقيقة وبنَّاءة كانت مفيدة جدًّا في رسم شكل الكتاب؛ فأنا أقدر ما قدموه تقديرًا كبيرًا. وكان البروفيسور هويستون قرأ المسودة الأولى كاملة؛ وكانت ملاحظاته نفيسة جدًّا. يستحق البروفيسور جون ستاين Prof. John Stein الشكر على مساعدتي في المقام الأول في دراسة علم الأعصاب، كذلك أنا مدين بالشكر لدور جامعة أكسفورد، وهي مؤسسة علمتني كثيرًا (ليس علم الأعصاب فحسب)، ووفرت لي كثيرًا من التحفيز لكتابة هذا الكتاب.

أخيرًا، فإنني مدين بما تعجز عنه الكلمات لليسون تايلور، وديفيد تايلور، وجيليان رايت على مساعدتهم وصبرهم الذي لا ينضب في رسم شكل كتاب غسيل الدماغ- وعقل مؤلفه- نحو الأفضل، وإلى هؤلاء الثلاثة المؤثرين العظماء، أهدي هذا الكتاب.

يقول المؤلفون غالبًا عند هذه النقطة: «كانت كتابة هذا الكتاب رحلة استكتشاف»، ولا يسعني إلا أن آمل أن رحلتي هذه هي البداية فقط؛ لكن كتابة غسيل الدماغ علمتني حقًّا كثيرًا، وآمل أن تستمع بالرحلة، كما استمتعت أنا.

obeikan.com